الرحـلة الخامسة

الرِّحْلَةُ الْخَامِسَةُ: سَفِينَةٌ إِلَى هَادِمِ اللَّذَّاتِ

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، وَبَعْدُ.

هَا هُوَ أَوَانُ انْطِلَاقِ الرِّحْلَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ رِحْلَاتِنَا الْبَحْرِيَّةِ، انْطِلَاقًا مِنْ مِينَاءِ "**هَادِمِ اللَّذَّاتِ**"؛ فَقَدْ طَالَ الْحَدِيثُ كَثِيرًا عَنْهُ، وَحَتَّى يَتَسَنَّى لَنَا إِتْمَامُ مَا بَقِيَ عَلَيْنَا مِنَ الْكَلَامِ، أَدْعُو أَبْنَائِي الْأَفَاضِلَ وَإِخْوَانِي الْكِرَامَ إِلَى رُكُوبِ السَّفِينَةِ، فَكُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ لِانْطِلَاقِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْخَامِسَةِ، ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: 41].

خُذُوا أَمْتِعَتَكُمْ كَمَا تَعَودْنَا، وَأَعِدُّوا أَنْفُسَكُمْ، فَاسْتَحْضِرُوا نِيَّاتِكُمُ الصَّالِحَةَ لِلتَّعَبُّدِ لِرَبِّكُمْ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ؛ سَعْيًا لِلِانْتِفَاعِ بِهَا وَبِمَا سَيُلْقَى عَلَيْكُمْ مِنْ عِلْمٍ نَافِعٍ مَصْحُوبٍ بِدَلِيلِهِ. نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِي حَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَيْهِ فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي مَالَ فِيهِ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَى دُنْيَاهُمْ وَتَرَكُوا أُخْرَاهُمْ.

تَفَقَّدُوا أَحْوَالَكُمْ وَزَادَكُمْ وَأَمْتِعَتَكُمْ كَمَا تَعَوَّدْتُمْ، وَاحْذَرُوا مِمَّنْ يُرِيدُ قَطْعَ الطَّرِيقِ عَلَيْكُمْ بِالسَّعْيِ إِلَى إِلْغَاءِ رِحْلَتِكُمْ أَوْ تَأْخِيرِهَا أَوْ تَعْطِيلِهَا، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ؛ لِيَحْرِمُوكُمْ مِمَّا تَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي أَيَّامِ حَاجَتِكُمُ الْمَاسَّةِ إِلَيْهِ، سَوَاءٌ كَانَ هُنَا فِي دُنْيَاكُمْ أَمْ كَانَ هُنَاكَ فِي أُخْرَاكُمْ. انْتَبِهُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَإِلَى أَوْقَاتِكُمْ، وَاحْذَرُوا

أبي قتيبة عمر بن محمد الطاهر شابي

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ جَاهِدِينَ لِإِضَاعَةِ أَوْقَاتِكُمْ بِمَا يَضُرُّكُمْ وَلَا يَنْفَعُكُمْ، وَيُرِيدُونَ مِنْكُمْ أَنْ تَنْدَمُوا وَتَتَحَسَّرُوا يَوْمَ مُحَاسَبَتِكُمْ وَمُجَازَاتِكُمْ.

إِنَّهُ ابْتِدَاءً عَدُوُّكُمُ الْأَلَدُّ: الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ، كَمَا قَرَّرَ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: 5]، وَقَالَ جَلَّ مَنْ قَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6].

وَلَا تَنْسَ يَا عَبْدَ اللهِ وَيَا أَمَةَ اللهِ، أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَنْصِبُ لَكَ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ وَحْدَهُ، بَلْ لَهُ أَعْوَانٌ كُثُرٌ أَنْتَ لَا تَعْلَمُهُمْ وَلَا تَرَاهُمْ وَهُمْ يَرَوْنَكَ؛ جُنْدٌ مُعَدُّونَ لِحَرْبٍ، مُدَرَبُونَ عَلَيْهَا، أَسْلِحَتُهُمْ مَاضِيَةٌ قَاضِيَةٌ، وَلَيْسَ لَكَم مِنَ ذَلِكَ مَنَّجَاةٍ مِنْهُمْ إِلَّا إِلَى رَبِّكَ جَلَّ وَعَلَا، وَلَا مَفْزَعَ لَكَ مِنْهُمْ إِلَّا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَاسْتَعِنْ بِهِ عَلَيْهِمْ لِيَدْفَعَ عَنْكَ كَيْدَهُمْ. قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62].

مَعْشَرَ الرُّكَّابِ الْكِرَامِ، لَا يَزَالُ حَدِيثُنَا يَسْرِي مُتَتَابِعًا حَوْلَ مَوْضُوعِ "الْمَوْتِ". هَذِهِ اللَّفْظَةُ الَّتِي هُجِرَتْ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَغَابَتْ عَنْ أَلْسُنِ النَّاسِ إِلَّا قَلِيلًا، وَكَذَا فُقِدَتْ مِنْ كَلَامِ الْوُعَّاظِ وَالْخُطَبَاءِ وَالنَّاصِحِينَ وَالْمُرْشِدِينَ. أَتُرَى أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ ذِكْرَهَا عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَفِي كِتَابَاتِهِمْ وَمُحَاضَرَاتِهِمْ وَدَعَوَاتِهِمْ؟ أَمْ أَنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَى قَنَاعَةٍ مَفَادُهَا أَنَّ الْكَلَامَ عَنِ الْمَوْتِ الْيَوْمَ غَيْرُ نَافِعٍ وَلَا مُجْدٍ، وَلَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ لِأَنَّ ذَلِكَ يُنَغِّصُ عَلَيْهِمْ لَذَّاتِ حَيَاتِهِمْ وَمُتَعَهُمْ؟

فَنَقُولُ: مَا السِّرُّ فِي اخْتِفَاءِ الْكَلَامِ عَنِ الْمَوْتِ وَالْقَبْرِ وَالْقِيَامَةِ عِنْدَ أَكْثَرِ مَنْ يَتَصَدَّى لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ، وَهُمْ قَلِيلُونَ؟ لَكِنْ عَلَيْنَا أَنْ نُذَكِّرَ أَنْفُسَنَا وَنُذَكِّرَ إِخْوَانَنَا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِهَذَا الْأَمْرِ الْمُهِمِّ الْجَلَلِ؛ نُصْحًا لِأَنْفُسِنَا أَوَّلًا وَلِغَيْرِنَا، وَمَحَبَّةً لَهُمْ فِي نَوَالِ الْخَيْرِ وَالْوِقَايَةِ مِنَ الشَّرِّ.

اعْذُرُونِي يَا مَعْشَرَ الرُّكَّابِ الْأَفَاضِلِ إِنْ كُنْتُ قَدْ تَوَسَّعْتُ كَثِيرًا فِي الْكَلَامِ، وَفِي بَسْطِ أَطْرَافِهِ حَوْلَ مَوْضُوعِ الْمَوْتِ. وَأُشْهِدُ اللهَ تَعَالَى وَلَا أُشْهِدُ غَيْرَهُ أَنَّ مَرْجِعَ ذَلِكَ إِلَى إِلْحَاحٍ شَدِيدٍ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَعَقْلِي وَفِكْرِي وَقَلْبِي، لَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ التَّخَلُّصِ مِنْهُ.

الموقع الرسمي للشيخ: علي بن عمر بن محمد الطاهر سالي

وَلِنَعُدْ إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْمَوْتِ. إِنَّ الْمُتَقَرَّرَ شَرْعًا وَعَقْلًا وَحِسًّا وَوَاقِعًا، أَنَّ لِلْمَوْتِ أَجَلًا مُحَدَّدًا وَزَمَنًا مُؤَقَّتًا، مَعْلُومٌ لله تَعَالَى، مَجْهُولٌ لِغَيْرِهِ؛ فَلَا يُؤَخَّرُ وَلَا يُقَدَّمُ، وَلَا يُعَجَّلُ وَلَا يُؤَجَّلُ، وَلَا يُرَاجَعُ وَلَا يُبَدَّلُ، وَلَا يُحَوَّلُ وَلَا يُرَدُّ، وَلَا يُرَدُّهُ رَادٌّ، وَلَا يَصُدُّهُ صَادٌّ، وَلَا يَمْنَعُهُ حَرَسٌ وَلَا أَبْوَابٌ، مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُمْ وَكَثْرَةُ جُنْدِهِمْ وَتَعَدُّدُ حِيَلِهِمْ وَتَنَوُّعُ أَسْلِحَتِهِمْ.

قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: 145]، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34]، وَقَالَ: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: 11].

وَالْمُحَصَّلُ فِي الْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِأَمْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَإِذْنِهِ الْكَوْنِيِّ (فَالْإِذْنُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ نَوْعَانِ: كَوْنِيٌّ قَدَرِيٌّ، وَشَرْعِيٌّ دِينِيٌّ). وَذَلِكَ يَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا مُبَاشِرًا بِمَا سُطِّرَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَأَمَرَ اللهُ الْقَلَمَ بَعْدَ خَلْقِهِ بِكِتَابَتِهِ، وَذَلِكَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ وَلَنْ يَمُوتَ أَحَدٌ بِكَيْدِ كَائِدٍ، وَلَا بِحِيلَةِ مُحْتَالٍ، وَلَا بِتَرَبُّصِ مُتَرَبِّصٍ، وَلَا بِتَخْطِيطِ مُدَبِّرٍ؛ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا أَنْ تَمُوتَ تِلْكَ النَّفْسُ. إِنَّمَا هِيَ أَسْبَابٌ وَوَسَائِلُ وُضِعَتْ لِحُضُورِ الْأَجَلِ، فَكُلٌّ لَهُ أَجَلٌ مَحْدُودٌ وَعُمْرٌ مَعْدُودٌ، إِذَا اسْتَوْفَاهُ مَاتَ وَقَضَى، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34].

وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُ الْجَهَلَةِ السَّذَّجِ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الْمَوْتَ لَا يَنْزِلُ إِلَّا بِأَصْحَابِ الْعِلَلِ وَالْأَسْقَامِ الَّذِينَ طَالَ زَمَنُ مَرَضِهِمْ وَعَسُرَ شِفَاؤُهُمْ، أَوْ يَنْزِلُ بِأُولَئِكَ الَّذِينَ بَلَغُوا مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا وَهَرِمُوا وَشَاخُوا، ثُمَّ سَقَطَتْ حَوَاجِبُهُمْ عَلَى عُيُونِهِمْ وَبَلَغُوا أَرْذَلَ الْعُمُرِ. وَهَذَا إِعْتِقَادٌ خَاطِئٌ وَفَهْمٌ عَاطِلٌ. وَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ:

تَزَوَّدْ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي* إِذَا جَنَّ لَيْلٌ هَلْ تَعِيشُ إِلَى الْفَجْرِ؟**

فَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ ***وَكَمْ مِنْ عَلِيلٍ عَاشَ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ

وَكَمْ مِنْ صَغِيرٍ يُرْتَجَى طُولُ عُمْرِهِمْ* وَقَدْ أُدْخِلَتْ أَجْسَادُهُمْ ظُلْمَةَ الْقَبْرِ**

وَكَمْ مِنْ عَرُوسٍ زَيَّنُوهَا لِزَوْجِهَا* وَقَدْ قُبِضَتْ أَرْوَاحُهُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ**

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمَاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

اعْلَمُوا -رَعَاكُمُ اللهُ- وَأَنْتُمْ تُوَاصِلُونَ رِحْلَتَكُمْ عَبْرَ سَفِينَتِكُمُ الْمَاخِرَةِ إِلَى دِيَارِ الْآخِرَةِ، أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ، أَوْ غَرِقَ، أَوِ احْتَرَقَ، أَوْ طُعِنَ وَقُتِلَ، أَوْ صَدَمَتْهُ سَيَّارَةٌ وَانْقَلَبَتْ بِهِ، أَوْ سَقَطَ مِنْ طَائِرَةٍ، أَوِ انْتَحَرَ، أَوْ سَقَطَ عَلَيْهِ هَدْمٌ، أَوْ قُتِلَ فِي مَعْرَكَةٍ بِرَصَاصِ عَدُوٍّ، أَوْ مَاتَ جُوعًا أَوْ عَطَشًا؛ فَإِنَّمَا حَضَرَ أَجَلُهُ وَحَانَ حِينُهُ لِلْمَوْتِ.

فَالْمَوْتُ يَدُورُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

1. **وَقْتٌ مُحَدَّدٌ.**
2. **سَبَبٌ مُعَيَّنٌ.**
3. **مَكَانٌ مُخْتَارٌ.**

الموقع الرسمي للشيخ: أبي قتيبة عمر بن محمد الطاهر شابي

رَوَى أَبُو عِزَّةَ يَسَارُ بْنُ عَبْدِ الْهُذَلِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ قَبْضَ رُوحِ عَبْدٍ بِأَرْضٍ، جَعَلَ لَهُ بِهَا حَاجَةً**». (رَوَاهُ الطَّيَالِسِيُّ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ). وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ الْإِمَامِ التِّرْمِذِيِّ: «**إِذَا قَضَى اللهُ لِعَبْدٍ أَنْ يَمُوتَ بِأَرْضٍ، جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً**».

وَقَدْ أَحْسَنَ ذَاكَ الْقَائِلُ عِنْدَمَا قَالَ:

مَشَيْنَاهَا خُطًى كُتِبَتْ عَلَيْنَا ***وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطًى مَشَاهَا

وَأَرْزَاقٌ لَنَا مُتَفَرِّقَاتٌ ***فَمَنْ لَمْ تَأْتِهِ مِنْهَا أَتَاهَا

وَمَنْ كَانَتْ مَنِيَّتُهُ بِأَرْضٍ* فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا**

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

وَقَدْ حَاوَلَ بَعْضُ الْغَفَلَةِ الْحُمْقَى مِنَ النَّاسِ الْفِرَارَ مِنَ الْمَوْتِ، وَمُحَاوَلَةَ عَدَمِ الِالْتِقَاءِ بِهِ، وَالِاجْتِهَادَ فِي الِابْتِعَادِ عَنْ مَوَاطِنِهِ وَأَسْبَابِهِ، وَذَلِكَ بِإِحْكَامِ غَلْقِ الْأَبْوَابِ وَالسُّتُورِ، وَإِقَامَةِ الْحَوَاجِزِ وَالْمَوَانِعِ؛ تَحَصُّنًا مِنْ لِقَاءِ الْمَوْتِ بِهِمْ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ نَأَوْا عَنْهُ وَعَنْ لِقَائِهِ، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ الْمُؤَكَّدَةَ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ إِذَا أُمِرَ بِقَبْضِ رُوحِ عَبْدٍ، فَإِنَّهُ يَأْتِي فِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ، وَلَا يَسْتَأْذِنُ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَرْحَمُ أَحَدًا، وَلَا يُجَامِلُ أَحَدًا، وَلَا يُحَابِي أَحَدًا. وَالْعَجِيبُ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَهْرُبُ مِنَ الْمَوْتِ لِيَلْتَقِيَ بِهِ فِي زَمَانِهِ وَمَكَانِهِ وَسَبَبِهِ.

الْكُلُّ سَائِرٌ وَرَاحِلٌ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا، شَاءَ أَمْ أَبَى، وَيُرْغَمُ أَنْفُهُ فِي التُّرَابِ، وَلَا يَبْقَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَحَدٌ. لَا يَمُوتُ إِلَّا صَاحِبُ الْعِزَّةِ وَالْمَلَكُوتِ، وَصَاحِبُ الْكِبْرِيَاءِ وَالْجَبَرُوتِ، فَلَا يَكُونُ هُنَاكَ وَارِثٌ إِلَّا اللهُ جَلَّ وَعَلَا، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: 40].

- يَمُوتُ كُلُّ نَبِيٍّ وَوَلِيٍّ.
- يَمُوتُ كُلُّ تَقِيٍّ وَشَقِيٍّ.
- يَمُوتُ كُلُّ مَلَكٍ وَجِنِّيٍّ.
- يَمُوتُ كُلُّ فَقِيرٍ وَغَنِيٍّ.
- يَمُوتُ كُلُّ أَمِيرٍ وَوَزِيرٍ.

- يَمُوتُ كُلُّ حَاكِمٍ وَمَحْكُومٍ.
- يَمُوتُ كُلُّ جَاهِلٍ وَعَالِمٍ.
- يَمُوتُ كُلُّ سَيِّدٍ وَمَسُودٍ.
- يَمُوتُ كُلُّ عَبْدٍ وَحُرٍّ.
- يَمُوتُ كُلُّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ.
- يَمُوتُ كُلُّ عَزِيزٍ وَذَلِيلٍ.
- يَمُوتُ كُلُّ رَفِيعٍ وَوَضِيعٍ.
- يَمُوتُ كُلُّ عَابِدٍ وَزَاهِدٍ.
- يَمُوتُ كُلُّ مُقِيمٍ وَمُجَاهِدٍ.

الموقع الرسمي للشيخ: أبي عمر بن محمد الطاهر شابي

لَكِنْ وَاهًا! لَيْتَ شِعْرِي، مَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ؟ إِنَّهَا الْمَسْأَلَةُ وَالْمُحَاسَبَةُ وَالْجَزَاءُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ خُلُودٌ فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ. قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: 31]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

وَاسْمَعْ إِلَى ذَلِكَ الْقَائِلِ إِذْ قَالَ:

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرِكْنَا ** لَكَانَ الْمَوْتُ رَاحَةَ كُلِّ حَيِّ

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا بُعِثْنَا** وَنُسْأَلُ بَعْدَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءِ

اعْلَمُوا وَفَقَكُمُ اللهُ لِكُلِّ خَيْرٍ، فَإِنَّ لَفْظَ "الْمَوْتِ" وَمُشْتَقَّاتِهِ قَدْ تَقَرَّرَ ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ **مِئَةً وَخَمْسًا وَسِتِّينَ (165) مَرَّةً فِي مِئَةٍ وَثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ (143) آيَةً كَرِيمَةً**، وَذَلِكَ فِي **ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ (53) سُورَةً** مِنْ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَقَارَبَ ذَلِكَ نِصْفَ عَدَدِ سُوَرِ الْقُرْآنِ. مِنْهَا اثْنَانِ وَثَمَانُونَ (82) مَوْطِنًا فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ، وَوَاحِدٌ وَثَمَانُونَ (81) مَوْطِنًا فِي السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ. دَلَّ ذَلِكَ عَلَى مَدَى أَهَمِّيَّةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَعِنَايَةِ الْقُرْآنِ بِهِ، وَمَا لَهُ مِنْ مَكَانَةٍ عَظِيمَةٍ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِ.

فَقَدْ كَانَ سَلَفُنَا الصَّالِحُونَ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى- يُكْثِرُونَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ، فَيَتَرَدَّدُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، وَيَجْرِي فِي قُلُوبِهِمْ فِي أَكْثَرِ أَحَادِيثِهِمْ وَأَوْقَاتِهِمْ وَأَحْيَانِهِمْ، وَيَدُورُ فِي أَغْلَبِ مَجَالِسِهِمْ. وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ الَّذِي قَالَ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ**» (يَعْنِي الْمَوْتَ). (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ). فَكَانَ يُوصِي أَصْحَابَهُ وَأُمَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ بِالْإِكْثَارِ مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَوْتِ، وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ، وَانْتِظَارِ مَلَكِ الْمَوْتِ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى التَّوْبَةِ فِي كُلِّ حِينٍ؛ حَتَّى إِذَا حَضَرَ الْمَوْتُ، وَجَدُوا أَنْفُسَهُم مُسْتَعِدِّينَ لِاسْتِقْبَالِهِ بِالرِّضَا وَالطُّمَأْنِينَةِ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**». قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟ قَالَ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا،**

وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ». (رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ).

هَذَا الْمَوْتُ حَتْمٌ لَازِمٌ، قَدْ نَسِيَهُ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ وَغَفَلُوا عَنْهُ، أَوْ قُلْ: تَغَافَلُوا عَنْهُ وَتَجَاهَلُوهُ، وَأَبْعَدُوهُ مِنْ حِسَابَاتِهِمْ، وَمَحَوْهُ مِنْ أَجِنْدَاتِهِمْ، بَلْ وَغَيَّبُوهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَأَذْكَارِهِمْ؛ لِشِدَّةِ تَعَلُّقِهِمْ بِدُنْيَاهُمْ، وَالشَّغَفِ بِهَا، وَتَحْصِيلِ أَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ لَذَّاتِهَا. هَذِهِ الْغَفْلَةُ ضَارَّةٌ، تُؤَثِّرُ سَلْبًا عَلَى حَيَاةِ الْمُسْلِمِ؛ تُورِثُ قَسْوَةً فِي الْقَلْبِ، وَتَكَاسُلًا فِي الطَّاعَةِ، وَتَسْوِيفًا فِي التَّوْبَةِ، وَتَأْجِيلًا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَاسْمَعْ إِلَى ذَلِكَ الْقَائِلِ:

يَا سَاهِيًا وَاللَّيَالِي لَا تُغَادِرُهُ* إِنَّ الرَّحِيلَ قَرِيبٌ مَا الَّذِي زَادِي؟**

أَتَرْجُو الْبَقَاءَ صَحِيحًا سَالِمًا أَبَدًا؟ * هَيْهَاتَ! أَنْتَ غَدًا فِي الرَّكْبِ الْغَادِي**

وَقَدْ يَأْخُذُكَ الْعَجَبُ أَخْذًا شَدِيدًا، وَمَا لَكَ لَا تَعْجَبُ حِينَ تَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ بَنِي قَوْمِنَا لَا يَذْكُرُ الْمَوْتَ إِلَّا عِنْدَ حُضُورِ الْجَنَائِزِ وَالْمَآتِمِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يُحِبُّ أَنْ يَغْشَى هَذِهِ الْأَمَاكِنَ خَشْيَةَ الِانْزِعَاجِ مِنْ ذَلِكَ!

قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ -أَبُو يَزِيدَ الْكُوفِيُّ، ثِقَةٌ عَابِدٌ مُخَضْرَمٌ، تُوُفِّيَ سَنَةَ 63هـ-: "أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، فَإِنَّكُمْ لَمْ تَذُوقُوا مِثْلَهُ". وَكَانَ يَقُولُ: "لَوْ فَارَقَ ذِكْرُ الْمَوْتِ قَلْبِي سَاعَةً، لَفَسَدَ". (ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي "صِفَةِ الصَّفْوَةِ").

وَكَانَ سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ الْمَدَنِيُّ -أَبُو حَازِمٍ الْأَعْرَجُ، مِنْ خِيرَةِ التَّابِعِينَ، تُوُفِّيَ سَنَةَ 133 هـ- يَقُولُ: "كُلُّ شَيْءٍ لَا تُرِيدُهُ لِلْمَوْتِ فَاتْرُكْهُ الْيَوْمَ، ثُمَّ لَا يَضُرُّكَ مَتَى مِتَّ". (ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي "صِفَةِ الصَّفْوَةِ").

وَكَانَ أَحَدُ عُبَّادِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَزُهَّادِهَا يَخْرُجُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سُورِ الْمَدِينَةِ وَيُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: "الرَّحِيلَ! الرَّحِيلَ!". فَلَمَّا فُقِدَ صَوْتُهُ، سَأَلَ عَنْهُ أَمِيرُ تِلْكَ الْبَلْدَةِ، فَقِيلَ لَهُ: لَقَدْ مَاتَ! فَأَنْشَدَ الْأَمِيرُ يَقُولُ:

مَا زَالَ يُلْهِجُ بِالرَّحِيلِ وَذِكْرِهِ* حَتَّى أَنَاخَ بِبَابِهِ الْجَمَّالُ**

فَأَصَابَهُ مُسْتَيْقِظًا لَمْ تُلْهِهِ* دُنْيَاهُ أَوْ تُغْرِرْ بِهِ الْآمَالُ**

يَا عَبْدَ اللهِ وَيَا أَمَةَ اللهِ، اعْلَمْ -رَعَاكَ اللهُ- أَنَّكَ مَهْمَا طَالَ عُمْرُكَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ. سَتُفَارِقُ هَذِهِ الدُّنْيَا، فِي سَفْرَةٍ كُتِبَ عَلَى وَجْهِهَا "ذَهَابٌ دُونَ إِيَابٍ". سَتُفَارِقُ أَهْلَكَ، وَزَوْجَكَ، وَأَوْلَادَكَ، وَأَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْكَ مِنْ أَقَارِبِكَ وَأَصْدِقَائِكَ وَأَحْبَابِكَ. وَسَتَتْرُكُ أَقْرَبَ شَيْءٍ كَانَ يُلَازِمُكَ فِي أَغْلَبِ أَوْقَاتِكَ: مَلَابِسَكَ، حِذَاءَكَ، خَاتَمَكَ، وَكُلَّ شَيْءٍ قَرِيبٍ مِنْكَ.

إِذًا، مَا الْعَمَلُ؟ وَمَا الْحِيلَةُ تِجَاهَ هَذَا الْأَمْرِ الْجَلَلِ؟ الْجَوَابُ: الْبِدَارُ بِالِاسْتِعْدَادِ لِلْمَوْتِ، وَذَلِكَ بِالتَّوْبَةِ عَنِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَمُلَازَمَةِ ذَلِكَ، وَالِاشْتِغَالِ بِإِصْلَاحِ النَّفْسِ، وَحَمْلِهَا عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورَاتِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورَاتِ، وَالِابْتِعَادِ عَنْ مَوَاطِنِ الشُّبُهَاتِ، وَالْكَفِّ عَنِ

الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالِالْتِفَاتِ إِلَى تَعَلُّمِ الدِّينِ، وَتَصْحِيحِ الْمُعْتَقَدِ، وَإِصْلَاحِ الْعِبَادَةِ، وَتَحْسِينِ الْخُلُقِ، وَتَعْمِيرِ الْأَوْقَاتِ بِالْقُرُبَاتِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ.

خِتَامُ الرِّحْلَةِ السَّادِسَةِ

وَهَكَذَا، تَصِلُ الْإِشَارَةُ بِإِيذَانِ قُرْبِ انْتِهَاءِ الرِّحْلَةِ السَّادِسَةِ مِنْ رِحْلَاتِنَا الْبَحْرِيَّةِ عَلَى مَتْنِ "سَفِينَةِ الْآخِرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ". أَتَمَنَّى أَنَّكُمْ قَدْ قَضَيْتُمْ مَعَنَا أَوْقَاتًا مُمْتِعَةً نَافِعَةً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. **آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ.**

وَهَكَذَا تَنْتَهِي رِحْلَتُنَا الْمُوَفَّقَةُ -بِإِذْنِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا- الْمَأْمُولَةُ، وَنَعُودُ أَدْرَاجَنَا إِلَى دِيَارِنَا وَأَهْلِينَا سَالِمِينَ غَانِمِينَ، مُنْتَفِعِينَ مُتَزَوِّدِينَ بِمَا يَنْفَعُنَا فِي آخِرَتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

أَسْأَلُ اللهَ لِي وَلَكُمْ الزِّيَادَةَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، وَالْحِفْظَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، مَا ظَهَرَ مِنْهُ وَمَا بَطَنَ. وَنَسْأَلُهُ عَاجِلَ الشِّفَاءِ لِمَرْضَانَا الصَّابِرِينَ، وَأَنْ يَرْزُقَ وُلَاةَ أُمُورِنَا الْبِطَانَةَ الصَّالِحَةَ وَالْحَاشِيَةَ الصَّادِقَةَ.

نَسْأَلُهُ تَعَالَى بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، أَنْ يَحْفَظَ بِلَادَنَا مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ، وَحَسَدِ الْحَاسِدِينَ، وَبُغْضِ الْمُبْغِضِينَ، وَعَدَاوَةِ الْمُعَادِينَ.

وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَقْصِمَ كُلَّ مَنْ أَرَادَ بِهَذَا الْبَلَدِ شَرًّا، وَأَنْ يَجْعَلَ كَيْدَهُ فِي نَحْرِهِ.

الموقع الرسمي للشيخ عمر بن محمد الطاهر شابي

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ المُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنِ اقْتَفَى أَثَرَهُ وَاتَّبَعَ هَدْيَهُ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ.

الموقع الرسمي للشيخ:
أبي قُتَيْبَةَ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ الطَّاهِرِ شَابِي
SUBSCRIBE
LIKE SHARE